على ترميم أوضاع من يشاركهم العمل والنضال، وهذه الممارسة تهدف أولاً إلى الحفاظ على الهوية الوطنية. ولهذا فإن سلبية «عادل» ومساومته تصبحان موضوعيا المعنى الحقيقي للصمود والمواجهة، بل يمكن القول إن عادل يعيش واقعه من الداخل ويعرف هذا الواقع، ومن هذه المعايشة وتلك المعرفة يصل إلى وعي موضوعي بعيد عن أوهام الرومانسية والبطولة الزائفة، وبعيد أيضاً عن المساومة التي تصل إلى التواطؤ.

في مقابل الوعي الموضوعي اللصيق بواقعه والمساوم، يقف وعي آخر أحادي البعد، يرى الوطن ولا يرى الأرض، يرى النضال ولا يرى مواده النضالية الحقيقية: الشعب والوعي الأحادي البعد يتمثل بشخصية «أسامة الكرمي»، الذي يرجع الاشكاليات إلى إشكالية واحدة، ويرى المركب بسيطا. شخصية رومانسية في وعيها السياسي، وقد تتطاول هذه الرومانسية وتمتد حتى تصبح جهلاً، وبطولة مجانية. بطولة تتأتى وتذهب، دون أن تدرك معنى الواقع، فتذهب التضحية في سطور الكتب دون أن تقول جديدا. تستحيل قضية الوطن عند «أسامة الكرمي» إلى إشكالية مجردة ومقولات نظرية باردة، بل قد تجاوز حدودها فتصبح حسًا أخلاقيا يمجد النضال دون أن يعرف الواقع.

«أسامة» فلسطيني جاء من «الخارج»، حاملاً وهم الوعي. وعندما يحاول استعمال «حمولته»، يكتشف غربته وتوحده، فيسير محبطا ناقما، ويعتبر «لقمة الخبز» ترفا، ولأن «الخبز» ليس ترفا فهو يقف في تعارض مع الآخرين، حتى يتوهم أحيانا أنه منقذ البلاد الوحيد. إن إشكالية أسامة الحقيقية تتمثل في الفراق القائم بين المثل والواقع، وبين النظرية والممارسة، وبين المفهوم الديمقراطي للجماهير والمفهوم النخبوي – الاستبدادي. ماذا يقول أسامة في سطور الرواية:

– «ماذا حدث للبلد؟ ماذا حدث للناس؟ ماذا حدث لكم؟ لقد تغيرتم. حتى الصبية يدخنون في الشوارع. والناس يلتهمون الكنافة ويبتسمون. وأنت أيضا تبتسم. ماذا حدث لكم؟ ماذا حدث للبلد؟ أبطروكم. استوعبوكم. ولا أرى في عيونكم ومضة خجل» (ص ٣٢)، ويقول أيضا: «يدخن الصبيان رغم وجود الآباء. فما نفع الآباء إذن؟ يسيؤون تربية الجيل الجديد ويشوهون أمجاد الصمود» (ص ٧٤).

وهكذا، يقف «أسامة» أمام مجتمعه محبطا، لا يفهم كيف يبتسم الآخرون، ولا كيف يعملون، فيذهب في إحباطه ولا يرى بوادر الشروق إلا في الجيل الجديد: «هذا هو الحبل الجديد، هذا هو الأمل. ومن هنا تنطلق الشرارة» (ص ٩). وفي انتظار «وصول» الجيل الجديد يذهب إلى مشروعه «واضحا»، والمشروع لا يقبل بالأقوال والمحاكمات لأنه يقول بحل واحد: «نسف باصات العمال». ويحقق «المناضل الثوري» حلمه، وينسف «الباصات» ويستشهد.

وهكذا تذهب الشهادة صادقة، توائم بين الفكر والعمل. ورغم صدقها الصافي فإنها تدخل في الرؤية الاخلاقية، دون أن تمتلك الوعي السياسي أو تقترب من الحدس التاريخي، أي أن صدق الشهادة يفقد جزءا منه أو أجزاء من إمكاناته في رومانسية الوعي و«نقاء